



كيف

تَحْشِدُ اللُّغَةَ قَبْلَ أَنْ تَحْشِدَ النَّاسَ؟

بقلم رشاد عبد القادر · ٩ كانون الأول ٢٠٢٥ · قراءة في ٥ دقائق

عندما وقف الرجل فجر اليوم التالي من اجتماع «سقيفة بني ساعدة»، أمام جموع المصلين كان يعلم أن ما جرى في السقيفة، لم يمنحه بعد الشرعية الكافية، وأن «البيعة الثانية» التي أعلنها للتو عمر بن الخطاب في المصلين، واصفاً إياه بما ورد في القرآن الكريم: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ..﴾، هي أيضاً وحدها ليست بكافية، وأن قناعته التي قالها يوم أمس لتهدئة روع المؤمنين بوفاة الرسول بكونه بشراً، ف: «مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ»، تقتضي منه، وهو الرجل المعروف بحنكته، أن يتقدم خطوة أخرى، ويعلن ما عده علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، دستور أول دولة مدنية في الإسلام، وأول «خطاب قسم» لم يكتب له الاستمرار، عندما خطب في المصلين قائلاً:

الاعتراف بالنقص،
يمنح سلطة أعلى

أَمَّا بَعْدَ أَيَّهَا النَّاسُ فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ عَلَيْكُمْ،
ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن
أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة،
والضعيف فيكم قوي عني حتى أرجع عليه حقه
إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عني حتى
أخذ الحق منه إن شاء الله،
لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله
بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله
بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا
عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا
إلى صلاتكم يرحمكم الله.

تعزيز روح المشاركة

ذروة بلاغية أولى

ذروة بلاغية ثانية

- مخاطبة الأمة لا النخبة
- أشبه ما تكون بمعادلة لغوية: وكأنتها شعار
- استخدام الفعل + الفاء + الطلب: موسيقى داخلية وإضفاء مصداقية
- طباق معنوي، يُسقط فكرة التفوق على الآخرين
- واحدة من أقوى الجمل وتعيد تعريف الطاعة

أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم، ولست بخيركم.

الافتتاح بـ«أما بعد» يفصل بين مقامين: مقام التنصيب، ثم مقام البيان والتوجيه.

الخطاب يبدأ ببناء مباشر «أيها الناس» ← صناعة حضور جماعي، مخاطبة الأمة لا النخبة.

العبارة «ولست بخيركم» هي أهم ضربة أخلاقية في الخطبة، فهي:

تُسقط شعار التفوق الشخصي.

تضع المستمع في جو من التواضع السياسي النادر: سلطة بلا ادعاء.

وتستخدم طباقاً معنوياً: وليت / بخيركم.

وهذه مفارقة مقصودة: فالقائد الأعلى يعلن أنه ليس الأفضل ← وهذا يفضي بالنهاية إلى تعميق الثقة.

والدرس الذي يمكن تعلمه هنا: ابدأ خطابك بكسر توقّعات الجمهور. الاعتراف بنقصك أحياناً يمنحك سلطة أخلاقية أقوى من ادعاء القوة.

ثم يمضي:

فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني

يستخدم المقابلة، وجملة مبنية على الشرط المزدوج: (أحسنت... → أسأت)، وهنا تتجلى روح المشاركة: السلطة ليست مطلقة، بل علاقة متبادلة.

ويستخدم التناظر أيضاً: الفعل + الفاء + الطلب (فأعينوني / فقوموني)، هذا فضلاً عن الإيقاع الداخلي المتناغم للغاية، ما يجعل الجملة سهلة الحفظ، ويضفي المصداقية «قوموني» على الحديث.

والدرس الذي يمكن تعلمه هنا: التناظر البنائي يُنتج جملاً لا تُنسى. أكتب جملتين متقابلتين تشكلان قاعدة واحدة.

ثم يقول:

الصدق أمانة والكذب خيانة

جملة تكاد تكون شعاراً، بتعريف الأخلاق في أبسط صورة ممكنة: كلمتان، ثم حكم قاطع. ويستخدم الطباق الصريح (الصدق / الكذب)، الجنس المعنوي (أمانة / خيانة) يخلق إيقاعاً موسيقياً، في إيجاز بالغ؛ أقرب إلى الأقوال الحكمية.

والدرس الذي يمكن تعلمه هنا: أحياناً تحتاج الفكرة إلى جملة واحدة

أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عني حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عني حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عظمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحكم الله.

لم يكن أبو بكر الصديق الذي يعرفه المسلمون بلقبه أكثر من معرفتهم باسمه (عبد الله بن أبي قحافة)، رجلاً طامعاً في الدنيا، ولم يتوان عن صرف ثروته (40 ألف درهم) كاملة في سبيل الله. كان يعيش حياته من أجل آخرته، والبريطاني برنابي روجرسون في كتابه «ورثة محمد»، يشبه به الشاعر الإنكليزي الرومانتيكي جون كيتس، حتى إنه كان يخاطب العنديل، ويقول: «طوبى لك يا طير! تطير فتقع على الشجر ثم تأكل من الثمر ثم تطير، ليس عليك حساب، ولا عذاب، يا ليتني كنت مثلك! والله لوددت أني كنت شجرة إلى جانب الطريق فمر عليّ بعير فأخذني فأدخلني فاه فلاكني ثم ازدردني ثم أخرجني بعراً، ولم أكن بشراً».

مع ذلك، عرف الرجل أن الآخرة آخرة، وأن الدنيا دنيا، وأنها تقتضي الحزم (حتى وإن كان ذلك مع فاطمة، ابنة الرسول نفسه في مسألة الوراثة). ففي ذاك اليوم وضع هدوءه، ولباقته، ورثته جانباً، وحشد كامل بلاغته كي لا يفرط عقد جماعة المسلمين الناشئة، وإن تطلب ذلك الانقلاب على «مدنية» خطبته ذاتها، عندما خاض «حروب الردّة» ضد قبائل لم «ترتد» كلها عن الإسلام، إنما أرادت معظمها عقداً جديداً في تسديد الزكاة، فالطموحات السياسية تنصدر أحياناً الالتزامات المدنية.

ولا يزال صدى كلمات أبي بكر الصديق يتردد حتى الآن، من إعلان أبي بكر البغدادي خليفة لـ«الدولة الإسلامية» في الموصل عام 2014، إلى الخطبة التي ألقاها الرئيس السوري أحمد الشرع بمناسبة الذكرى الأولى للإطاحة بـبشار الأسد، وهو يعتقد، على الأرجح، أن «الأمة الإسلامية» على مفترق طرق.

فكيف فعل أبو بكر الصديق ذلك؟

لنر كيف حشد اللغة قبل أن يحشد المقاتلين:

تكن قوة خطبة أبي بكر الصديق في ثلاثة عناصر:

الاختزال الشديد: جمل قصيرة، محكمة، بلا زوائد.

التوازي البنائي: جمل تتكرر في صيغة واحدة لتسهيل الحفظ وترسيخ المعنى.

التحول من الخاص إلى العام: يبدأ بالمتكلم («وليت عليكم»، «أعينوني») وينتهي بمبادئ عامة تصلح دستوراً أخلاقياً.

وافتح خطبته بقوله:

الجملة تنتقل من المبادئ الأخلاقية الفردية إلى السنن الاجتماعية، وتستخدم أسلوب الشرط «إلا» وتكراره لإبراز القانون الاجتماعي.

ويستخدم أيضاً التقابل المعنوي مرة أخرى:

ترك الجهاد ← الذل

شيوخ الفاحشة ← البلاء

والدرس الذي يمكن تعلّمه هنا: التحذير الفعّال لا يكون بالصوت العالي، بل ببنية منطقية: إذا حدث كذا ← سيحدث كذا. فالوضوح أقوى من الوعظ.

ثم يبلغ الذروة الثانية في خطبته:

أطيعوني ما أطيع الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.

هذه الجملة تُعدّ واحدة من أكثر الجمل السياسية اقتباساً في التراث الإسلامي لأنها تعيد تعريف الطاعة. فهي صياغة دستورية تُقيّد السلطة بالمرجعية الأخلاقية.

وتضع شرطاً: الطاعة ليست مطلقة، «فإذا عصيت... فلا طاعة».

ثم أن تكرر مرجعية «الله ورسوله» لترسيخ سلطة المبدأ فوق سلطة الفرد.

والدرس الذي يمكن تعلّمه هنا: في أي نص قيادي، اربط سلطتك بمبدأ أعلى منك. هذا يعطي خطابك شرعية، ويعطي المتلقي ثقة.

واليوم، بعد أكثر من أربعة عشر قرناً، لا تزال هذه الجملة تحتفظ بقدرتها على التأثير: لأنها بُنيت على هندسة لغوية واضحة، وعلى مبادئ لا تبلى، ولأنها تقدّم نموذجاً يمكن للكاتب أن يتعلّم منه كيف يجعل اللغة تؤسّس، وتقنع، وتضبط، وتطمئن في آن واحد.

«كيف تحشد اللغة قبل أن تحشد الناس؟» — وما قرأت · بقلم رشاد عبد القادر · كانون الأول ٢٠٢٥

almuharir.net · تاريخ السحب ١٥ تشرين الأول ٢٠٢٦

محكمة، لا إلى فقرة طويلة. إذا استطعت أن تُكثّف المعنى إلى معادلة لغوية، فافعل.

ثم يقول:

الضعيف فيكم قويّ عندي حتّى أرجع عليه حقّه إن شاء الله، والقويّ فيكم ضعيف عندي حتّى أخذ الحقّ منه إن شاء الله.

هذه الذروة الأولى لبلاغة الخطبة. فيها مقابلة كبرى بين: (الضعيف ← قوي)، وفيها إعادة تعريف القوة: ليست قوة الجسد أو النفوذ، بل قوة الحق.

ويستخدم المقابلة الكاملة (أربع صور متعكسة):

(الضعيف ← قوي)

(أرجع الحقّ ← أخذ الحقّ)

(قويّ عندي ← ضعيف عندي)

(الضعيف يصبح قوياً بالقانون ← القوي يصبح ضعيفاً بالعدالة)

ويستخدم التقديم والتأخير لخلق الجرس الخطابي: «الضعيف فيكم قوي عندي»، «القوي فيكم ضعيف عندي».

والدرس الذي يمكن تعلّمه هنا: إذا أردت أن تبرز مبدأً أخلاقياً، فابنه على بنية متقابلة تمشي على قدمين: المظلوم قوي، والظالم ضعيف.

الناس تتذكّر هذا النوع من الهندسة اللغوية.

ثم يقول:

لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلاّ ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلاّ عمهم الله بالبلاء.